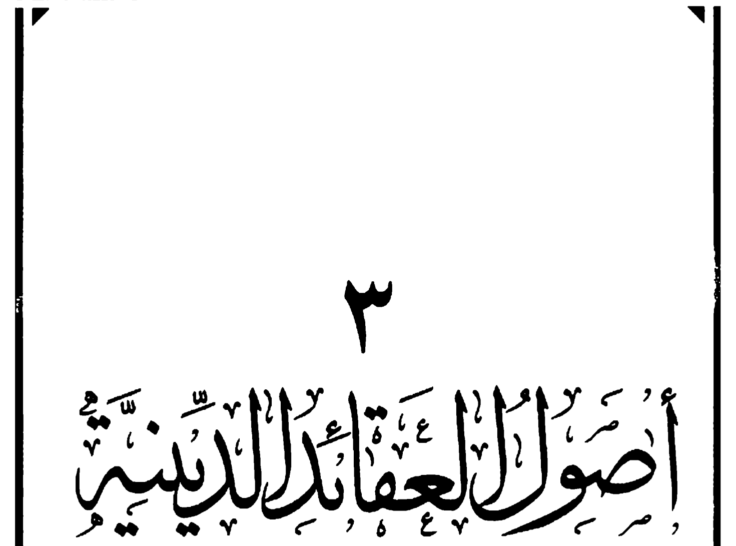


٣

أُصُولُ العَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي دلّ على ذاته بذاته وعلى رسله بآياته وعلى اليوم الآخر بحججه وبيّناته، والصلاة والسلام على محمّد وآله صلى الله عليه وآله مظاهر صفاته.

أمّا بعد، فيقول خادم علوم الدّين محمّد بن مرتضى المدعوّ بـ «محسن» ـ جعله الله من الموقنين ـ : هذه «أصول العقائد الدّينيّة» من التوحيد والنبوة والمعاد، على منهاج مبين يصلح للإرشاد، وبيان متين يصحّ عليه الاعتماد، بعضها من كلام أهل بيت النبوّة والولاية، وبعضها من مقالات المقتبسين من مشكاة أنوارهم بالفهم والدراية، ألّفتها بعد ما حقّقتها، لكي ينتفع بها كلّ من كان من أهل التوفيق والهداية.

الباب الأوّل: في التّوحيد

قال الله ﷻ: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»[1].

وقال سبحانه: «أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»[2].

وسُئل نبيّنا ﷺ: «بِمَ عرفتَ الله؟ فقال: بالله عرفتُ الأشياءَ»[3].

وسُئل أمير المؤمنين عليه السلام: «بِمَا ذَا عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَنَقْضِ الْهِمَمِ، لَمَّا هَمَمْتُ فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَمِّي، وَعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ[4] عَزْمِي؛ عَلِمْتُ أَنَّ الْمُدَبِّرَ غَيْرِي»[5].

وسُئل الإمام أبوعبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام «مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ لِلْعَالَمِ صَانِعاً؟ فَقَالَ: أَكْثَرُ الْأَدِلَّةِ فِي نَفْسِي، لِأَنِّي وَجَدْتُهَا لَا تَعْدُو أَحَدَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ أَكُونَ خَلَقْتُهَا وَأَنَا مَوْجُودٌ، وَإِيجَادُ الْمَوْجُودِ مُحَالٌ؛ وَإِمَّا أَنْ أَكُونَ خَلَقْتُهَا وَأَنَا مَعْدُومٌ، وَكَيْفَ

---

١ ـ فصّلت: ٥٣.

٢ ـ إبراهيم: ١٠.

٣ ـ تفسير ابن العربي: ٢٣٨/٢.

٤ ـ لم ترد في المصادر «والقدر».

٥ ـ التوحيد: ٢٨٨، باب ٤١، ح٦؛ الخصال: ٣٣، الباب الاثنين، ح١؛ بحار الأنوار: ٤٢/٣، باب٣، ح١٧؛ وردت في المصادر الحديثيّة: «...بفسخ العزم ونقض الهمّ...».

يَخْلُقَ لَا شَيْءٌ. فَلَمَّا رَأَيْتُهَا فَاسِدَيْنِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ جَمِيعاً عَلِمْتُ أَنَّ لِي صَانِعاً وَمُدَبِّراً»[١].

وسُئل الإمام أبو الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «مَا الدَّلِيلُ عَلَى حُدُوثِ الْعَالَمِ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَكُنْ ثُمَّ كُنْتَ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تُكَوِّنْ نَفْسَكَ، وَلَا كَوَّنَكَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ»[٢].

يعني في طبيعة الإمكان، فإنّ العليل لا يستطيع أن يبرئ العليل.

وسئل عارف: «بِمَ عرفتَ ربّك؟ فقال: بواردات ترد القلوب فتعجز النّفس عن تكذيبها»[٣].

وسُئل آخر عن الدليل على الصانع ؟ فقال: لقد أغنى الصباح عن المصباح[٤].

وسُئل أعرابيّ عن ذلك فقال: «البعرة تدلّ على البعير وأثر الأقدام تدلّ على المسير، فالسماء ذات أبراج والأرض ذات فجاج، أما تدلّان على الصانع الخبير؟!»[٥].

وفي القرآن المجيد إشارات وتنبيهات على مثل هذه الاستدلالات في غير موضع.

---

١ ـ روضة الواعظين: ٣١؛ وكذا راجع: حقائق الإيمان: ١٧٢؛ وردت في المصدر الأوّل: «... فلمّا رأيتها فاسدتين...».

٢ ـ راجع: الأمالي: ٤٣٣، المجلس٥٦، ح٦؛ عيون أخبار الرضا: ١٢٢ـ١٢٣، باب١١، ح٣٢؛ بحار الأنوار: ٣٦/٣، باب٣، ح١١ .

٣ ـ راجع: المبدأ والمعاد: ٣٨٠، الفنّ الثاني، المقالة الأولى؛ هذا قول «الجنيد بن محمّد» وهو زاهد مشهور أصله من «نهاوند» ولد في سنة٤٦٦ وتوفّي في سنة ٥٤٧. راجع: سير أعلام النبلاء: ٢٧٢/٢٠؛ وفيات الأعيان: ٣٧٣/١؛ تاريخ الإسلام: ١١٨/٢٢ـ١١٩؛ الوافي بالوفيات: ١٥٧/١١.

٤ ـ قاله الجنيد أيضاً. راجع شرح نهج البلاغة: ١٣٩/١١.

٥ ـ تفسير الرازي: ٩٩/٢ـ١٠٠؛ تفسير ابن كثير: ٦٢/١؛ تفسير الثعلبي: ٣٢/٣؛ بحار الأنوار: ١٣٤/٦٦، الباب الثلاثون، وجوب معرفة الله... .

وربّما يقال:

«إنّ التصديق بوجوده تعالى أمر فطريّ؛ ولذا يُرى الناس عند الوقوع في الأهوال وصعاب الأحوال يتوكّلون بحسب الجبلّة على الله ويتوجّهون توجّهاً غريزيّاً إلى مسبّب الأسباب ومسهّل الأمور الصعاب وإن لم يتفطّنوا لذلك.

ويشهد لهذا قول الله ﷻ: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ»[١]. «قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ الله أَوَأَتَتْكُمُ السّاعَةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلْ إِيّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ»[٢].

وسُئل مولانا الصّادق عليه السلام عن الله، فقال للسّائل: «يَا عَبْدَ اللهِ! هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ كُسِرَتْ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَاكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ»[٣]»[٤].

قيل في قوله ﷻ: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»: إشارة لطيفة إلى ذلك، فإنّه سبحانه استفهم الإقرار بربوبيّته لا بوجوده تنبيهاً على أنّهم كانوا مقرّين بوجوده في بداية عقولهم

---

١ ـ لقمان: ٢٥.

٢ ـ الأنعام: ٤٠ و٤١.

٣ ـ معاني الأخبار: ٤ـ٥، باب معنى الله ﷻ، ح٢؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٢٢، فضل القرآن، ح٦؛ بحارالأنوار: ٨٩/ ٢٤٠، باب٢٨، ح٤٨.

٤ ـ بحار الأنوار: ٦٤/١٣٧، أبواب الإيمان والإسلام، الباب الرابع، ح٧.

وفِطَر[١] نفوسهم.

وقال الصادق عليه السلام: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، يَعْنِي عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ اللهَ عزّ وجلّ خَالِقُهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماوات وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ»[٢] »[٣].

ولهذا جُعلتِ الناس معذورين في ترك اكتساب المعرفة بالله عزّ وجلّ متروكين على ما فطروا عليه، ولم يكلّفوا الاستدلالات العلميّة في ذلك كما هو التحقيق.

وقال نبيّنا صلى الله عليه وآله: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» »[٤].

وإنّما التعمّق والاستدلال لزيادة البصيرة ولطائفة مخصوصةٍ وللردّ على أهل الظلال؛ ولهذا أيضاً أمِرتِ الأنبياء عليهم السلام بقتل من أنكر وجود الصانع فجأةً بلا استتابة ولا عتاب؛ لأنّه ينكر ما هو من ضروريّات الأمور.

«ثمّ إنّ أفهام الناس وعقولهم متفاوتة في قبول مراتب العرفان وتحصيل الاطمينان كمّاً وكيفاً، شدّةً وضعفاً، سرعةً وبطؤاً، حالاً وعلماً، وكشفاً وعياناً، وإن كان أصل المعرفة ضروريّاً أو يُهتدى إليها بأدنى تنبيه، فلكلٍّ طريقة هداها الله إليها إن كان من أهل الهداية، و«الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»، وهم درجات إلى الله و«يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» [٥].

---

١ ـ جمع الفطرة.

٢ ـ لقمان: ٢٥.

٣ ـ التوحيد: ٣٣١ باب ٥٢، ح ٩ ؛ الكافي: ١٣/٢ كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد، ح ٣.

٤ ـ عيون أخبار الرضا: ٧٠، ح ٢٨٠ ؛ بحار الأنوار: ١١٣/٣٧، باب ٥٢، ح ٦.

٥ ـ المجادلة: ١١.

نقل مقال:

قال بعض العلماء: «اعلم: أنّ أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، فكان هذا يقضي أن يكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، ويُرى الأمر بالضدّ من ذلك، فلا بدّ من بيان السبب فيه.

وإنّما قلنا: إنّ أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، بمعنى لا يفهمه إلّا بمثال؛ وهو أنّا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط مثلاً كان كونه حيّاً من أظهر الموجودات، فحياته وعلمه وقدرته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة كشهوته وغضبه وخلقه ومرضه، وكلّ ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشكّ فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته، أمّا حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً فإنّه جليّ عندنا من غير أن يتعلّق حسّ البصر بحياته وقدرته وإرادته، فإنّ هذه الصفات لا تحسّ بشيء من الحواسّ الخمس، ثمّ لا يمكن أن يعرف حياته وقدرته وإرادته إلّا بخياطته وحركته.

فلو نظرنا إلى كلّ ما في العالم سواه لم نعرف به صفاته، فما عليه إلّا دليل واحد وهو مع ذلك جليّ واضح؛ ووجود الله وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كلّ ما نشاهده وندركه بالحواسّ الظاهرة والباطنة من حجر ومدر[1] ونبات وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبرّ وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض؛ بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأصنافنا وتقلّب أحوالنا وتغيّر قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا.

وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا، ثمّ محسوساتنا بالحواسّ الخمس، ثمّ مدركاتنا

١ ـ المدر: الطين اللزج الّذي لا يخالطه رمل.

بالبصيرة والعقل؛ وكلّ واحد من هذه المدركات لها مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد؛ وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلّة شاهدة بوجود خالقها ومدبّرها ومصرّفها ومحرّكها، ودالّة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته، والموجودات المدركة لا حصر لها.

فإن كان حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس له إلّا شاهد واحد وهو ما أحسسنا من حركة يده، فكيف لا يظهر عندنا من لا يتصوّر في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلّا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله؛ إذ كلّ ذرّة فإنّها تنادي بلسان حالها أنّه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها، وإنّما تحتاج إلى موجد ومحرّك لها، يشهد بذلك أوّلاً تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ونبات شعورنا وتشكّل أطرافنا وساير أجزائنا الظاهرة والباطنة، فإنّا نعلم أنّها لم تتألّف بنفسها كما نعلم أنّ يد الكاتب لم تتحرّك بنفسها؛ ولكن لمّا لم يبق في الوجود مدرك محسوس ومعقول وحاضر وغائب إلّا وهو شاهد ومعرّف، عظم ظهوره، فانبهرت العقول ودهشت[1] عن إدراكه. فإذن ما يقصر عن فهم عقولنا له سببان: أحدهما: خفائه في نفسه وغموضه، وذلك لا يخفى مثاله؛ والآخر: ما تناهى وضوحه.

وهذا كما أنّ الخفّاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرق، فيكون قوّة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلّا إذا امتزج الظلام بالضوء وضعف ظهوره.

---

١ ـ انبهر: بالغ في الشيء ولم يدع جهداً، دهش: تحيّر.

فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهيّة في نهاية الإشراق والشمول، حتّى لا يشذّ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه؛ فسبحان من احتجب بالإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره.

ولا يتعجّب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإنّ الأشياء تستبان بأضدادها، وما عمّ وجوده حتّى لا ضدّ له عسر إدراكه، فلو اختلف الأشياء فدلّ بعضها دون البعض أدركت التفرقة على قرب، ولمّا اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر.

ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض؛ فإنّا نعلم أنّه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشّمس فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها، لكنّا نظنّ أن لا هيئة في الأجسام إلّا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما، فإنّا لا نشاهد في الأسود إلّا السّواد وفي الأبيض إلّا البياض، فأمّا الضّوء فلا يدركه وحده، لكن لمّا غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركت تفرقةً بين الحالتين، فعلمنا أنّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتّصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النّور بعدمه؛ وما كنّا نطّلع عليه لو لا عدمه إلّا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهةً غير مختلفة في الظلام والنّور. هذا؛ مع أنّ النّور أظهر المحسوسات، إذ به يدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لو لا طريان ضدّه.

فإذن الربّ تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلّها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغيّر لانهدمت السماوات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدركت التفرقة بين الحالتين، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة

بين الشيئين في الدلالة؛ ولكن دلالته عامّة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه. فلا جرم أورث شدّة الظهور خفاء؛ فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

وأمّا من قويت بصيرته ولم يضعف مُنّته[١] فإنّه في حال اعتدال أمره لا يرى إلّا الله وأفعاله. وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له. فلا وجود لها بالحقيقة. وإنّما الوجود للواحد الحقّ الّذي به وجود الأفعال كلّها؛ ومَن هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلّا ويرى فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل[٢] من حيث أنّه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث أنّه صنع. فلا يكون نظره مجاوزاً له إلى غيره كمن نظر في شِعر إنسان أو خطّه أو تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنّف، ورأى آثاره من حيث هو آثاره لا من حيث أنّه حِبْر وعَفْص وزاج[٣] مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنّف.

فكلّ العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليها من حيث أنّها فعل الله ﷻ وعرّفها من حيث أنّها فعل الله وأحبّها من حيث أنّها فعل الله لم يكن ناظراً إلّا في الله ولا عارفاً إلّا بالله، وكان هو الموحّد الحقّ الّذي لا يرى إلّا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث هو عبد الله.

---

١ ـ المُنّة: القوّة.

٢ ـ نَسَى الفعل لشُغلٍ.

٣ ـ الحِبْر: المداد نكتب به. عَفْص: نُتُوء يحصل على شجرة البلوط ونباتات أخرى الّتي منها يُتّخذ الحِبر.الزاج: ملح يُصبغ به.

فهذا هو الّذي يقال فيه: أنّه فنى في التوحيد وأنّه فنى من نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنّا بنا ففنينا عنّا فبقينا بلا نحن.

فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام، أو لاشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أنّ بيان ذلك لغيرهم ممّا لا يعينهم، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى.

وأنضم إليه: أنّ المدركات كلّها الّتي هي شاهدة على الله إنّما يدركها الإنسان في الصّبي عند فقد العقل قليلاً قليلاً، وهو مستغرق الهمّ بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وآلفها، فسقط وَقْعها عن قلبه بطول الأنس، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو فعلاً من أفعال الله خارقاً للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فقال: سبحان الله! ، وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وساير الحيوانات المألوفة، وكلّها شواهد قاطعة، ولا يحسّ بشهادتها لطول الأنس بها.

ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً ثمّ انقشعت[1] غشاوة عليه فامتدّ بصره إلى السّماء والأرض والأشجار والنّبات والحيوان دفعةً واحدةً على سبيل الفجأة يخاف على عقله أن ينبهر، لعظم تعجّبه من شهادة هذه العجايب على خالقها.

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات الّتي سدّت على الخلق سبيل الاستضائة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة، والجليّات إذا صارت مطلوبةً

١ ـ قشعت بالريح السّحاب أي كشفته، فانقشع.

صارت معتاصة»[١]. فهذا سدّ الأمر فليتحقّق، ولذلك قيل:

«فقد ظَهَرتَ فلا تخفى على أحدٍ إلّا على أكمهٍ لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا وكيف يعرف من بالعرف استترا»[٢]»[٣].

انتهى كلامه.

ويشهد له قول الإمام أبي الحسن الكاظم عليه السلام: «لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ حِجَابٌ غَيْرُ خَلْقِهِ، احْتَجَبَ بِغَيْرِ حِجَابٍ مَحْجُوبٍ، وَاسْتَتَرَ بِغَيْرِ سِتْرٍ مَسْتُورٍ»[٤].

وقال أبو الأئمّة سيّد الشّهداء أبوعبدالله الحسين بن علي عليهما السلام في بعض دعواته:

«كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ؟! أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ؛ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟! وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟! عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ وَلَا تَزَالُ عَلَيْهَا رَقِيباً! وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً!

وَقَالَ عليه السلام أيضاً: تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ. وَ[قَالَ] تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ

---

١ ـ وردت في حاشية نسخة «ق»: «اعتاص عليه بالمهملتين أي اللّوي، والعويص من الشعر مايصعب استخراج معناه الّذي أريد به». عنه ـ رحمه الله ـ؛ اعتاص يعتاص اعتياصاً الأمر عليه اشتدّ وامتنع والتاث عليه فلم يهتدِ إلى وجه الصواب .

٢ ـ راجع: جامع الأسرار ومنبع الأنوار: ١٦٥؛ لسان العرب: ٨١/٤؛ هو قول «غيلان بن عقبة بن بهيس» المدعوّ بـ «ذو الرّمة» من فحول الشعراء المتوفّى سنة ١٠١هـ . راجع: وفيات الأعيان: ١١/٤؛ تاريخ الإسلام: ٣٥٦/٧؛ الوافي بالوفيات: ٣٤/١٤.

٣ ـ إحياء علوم الدّين: ٨٥/١٤ ـ ٨٨؛ وكذا راجع: محجّة البيضاء: ٥١/٨ ـ ٥٥ .

٤ ـ التوحيد: ١٧٩، باب٢٨، ح١٢؛ بحار الأنوار: ٣٢٧/٣، باب ١٤، ح٢٧.

شَيْءٍ فَرَأَيْتُكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ»[١].

وقال صاحب الفتوحات: «إنّ العالم غيب لايظهر قطّ، والحقّ هو الظاهر ما غاب قطّ، والناس في هذه المسألة على عكس الصواب، فيقولون: العالم ظاهر والحقّ غيب، فهم بهذا الاعتبار في مقتضى هذا الشرك كلّهم عبيد للسّواء[٢]، وقد عافى الله بعض عبيده عن هذه الداء»[٣].

تنبيه:

أشرف الدّلائل وأوثقها وأسرعها في الوصول وأغناها عن ملاحظة الأغيار هو طريقة «الصدّيقين» الّذين يستشهدون بالحقّ على كلّ شيء لا بغيره عليه، فيشاهدون جميع الموجودات في الحضرة الإلهيّة ويعرفونها في أسمائه وصفاته، فإنّه ما من شيء إلّا وله أصل في عالم الأسماء الإلهيّة وله وجه إلى الحقّ سبحانه.

ولذلك قال نبيّنا صلّى الله عليه وآله: «بالله عرفتُ الأشياء»[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « اعْرِفُوا اللهَ بِاللهِ»[٥].

وفي هذا الطريقة السّالك والمسلك والمسلوك منه والمسلوك إليه كلّه واحد، وهو البرهان على ذاته: «شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»[٦]، «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ

١ ـ بحار الأنوار: ١٣٧/٦٤ـ١٤٢، باب ٤؛ الإقبال: ٣٤٩.
٢ ـ كذا في النّسخ وفي المصدر«للسوي»، السواء: العَدل، المثل.
٣ ـ لم أقف على عبارته في تأليفاته الّتي بين يديّ، راجع: جامع الأسرار ومنبع الأنوار:١٦٣.
٤ ـ راجع تفسير ابن العربي: ٢٣٨/٢؛ شرح فصوص الحكم: ٥٨٢.
٥ ـ الكافي: ٨٥/١،كتاب التوحيد،باب أنّه لا يعرف إلّا به،ح ١؛ التوحيد: ٢٨٦،باب ٤١،ح ٣.
٦ ـ آل عمران: ١٨.

الله»[١].

وبعد هذه الطريقة في الإحكام والشرف طريقة «معرفة النفس»، كما أشير إليه بقوله عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[٢]، «أَعْرَفُكُمْ بِنَفْسِهِ أَعْرَفُكُمْ بِرَبِّهِ»[٣].

وإليه أشار أئمّة الثّلاثة عليهم السلام حين سئلوا عن الدّليل عليه[٤]، قال الله تعالى: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»[٥].

وفي هذه الطريقة يكون المسافر عين الطّريق، فيمتاز على سائر الطرق بهذا الوجه.

وبعدها ساير الطرق الآفاقيّة على تفاوت مراتبها، كما أشار إلى بعضها كلام الأعرابي[٦].

وإلى الطرق الثلاثة الإشارة بقوله تعالى: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»[٧].

إيقاظ

وليعلم أنّه لا يعرف الله حقّ معرفته إلّا الله، لأنّ الخلق كلّهم لا يعرفون إلّا احتياج

---

١ ـ الأنعام: ١٩.

٢ ـ شرح مأة حكمة لأمير المؤمنين:٥٧؛ الصراط المستقيم: ١٥٦/١؛ وراجع: عوالي اللئالي: ١٠٢/٤، الجملة الثانية،ح١٤٩؛ شرح نهج البلاغة: ٢٩٢/٢٠، ٣٣٩.

٣ ـ روضة الواعظين: ٢٠؛ مشارق أنوار اليقين: ٢٩٧؛ معارج اليقين: ٣٥،الفصل الأوّل، ح١٢

٤ ـ تقدّم في أوّل الكتاب.

٥ ـ الذاريات: ٢١.

٦ ـ تقدّم في أوّل الكتاب.

٧ ـ فصّلت: ٥٣.

هذا العالم المنظوم المحكَم إلى صانع مدبّر حيّ عالم سميع بصير قادر.

وهذه المعرفة لها طرفان: أحدهما متعلّق بالعالم، ومعلومه احتياجه إلى مدبّر؛ والآخر متعلّق بالله، ومعلومه أسامي مشتقّة من صفات غير داخلة في حقيقة الذات ومهيّته.

وقد ثبت أنّه إذا أشار المشير إلى شيء وقال: ما هو؟ لم‌يكن ذكر الأسماء المشتقّة جواباً أصلاً؛ فلو أشار إلى شخص حيوان فقال: ماهو؟ فقال: طويل أو أبيض أو بصير، أو أشار إلى ماء فقال: ما هو؟ فأجاب بأنّه بارد، أو إلى النّار فقال: حارّ؛ فقال: كلّ ذلك ليس بجواب عن المهيّة البتّة، والمعرفة بالشيء هي معرفة حقيقته وماهيّته لا معرفة الأسامي المشتقّة، فإنّ قولنا: حارّ، معناه شيء مبهم له وصف الحرارة، وكذلك قولنا: قادر وعالم، معناه شيء مبهم له وصف العلم والقدرة.

وأمّا قولنا أنّه واجب الوجود فهو عبارة عن استغنائه عن الفاعل وهذا يرجع إلى سلب السّبب عنه، وقولنا: إنّه يوجد عنه كلّ موجود، يرجع إلى إضافة الأفعال إليه، وإذا قيل لنا: ما هذا الشيء، فقلنا: هو الفاعل، لم‌يكن جواباً وإذا قلنا هو الّذي له سبب لم‌يكن جواباً، فكيف قولنا هو الّذي لا سبب له؛ لأنّ كلّ ذلك إخبار عن غيرذاته إمّا بنفي أو إثبات، وكلّ ذلك في أسماء وصفات وإضافات؛ فنهاية معرفة العارفين عجزهم عن معرفته، ومعرفتهم بالحقيقة أنّهم لا يعرفونه وأنّهم لا يمكنهم البتّة معرفته، وأنّه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقيّة المحيطة بكنه صفات الربوبيّة إلّا لله تعالى، فإذا انكشف بهم ذلك انكشافاً برهانيّاً فقد عرفوه، أي بلغوا المنتهى الّذي يمكن في حقّ الخلق من معرفته.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمُ اللهُ عَنِ الاقْتِحَامِ فِي السُّدَدِ[1] الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، فَلَزِمُوا الإِقْرَارَ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَقَالُوا: «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»[2]. فَمَدَحَ اللهُ تعالى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِي مَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْهُ مِنْهُمْ رُسُوخاً. فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ! وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ»[3].

---

١ ـ السُّدَد: جمع السُّدّة، باب الدار.

٢ ـ آل عمران: ٧.

٣ ـ التوحيد: ٥٥، باب ٢، ح ١٣؛ كذا راجع: بحارالأنوار: ٢٥٧/٣، باب ٩ ح ١؛ نهج البلاغة: ١٢٥، الخطبة ٩١؛ أعلام الدين في صفات المؤمنين: ١٠٣.

القول في الوحدانيّة

«شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ»[1]

قال أمير المؤمنين: «إِنَّ الْقَوْلَ فِي أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، فَوَجْهَانِ مِنْهَا لَا يَجُوزَانِ عَلَى اللهِ ﷻ ، وَوَجْهَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ؛ فَأَمَّا اللَّذَانِ لَا يَجُوزَانِ عَلَيْهِ: فَقَوْلُ الْقَائِلِ «وَاحِدٌ» يَقْصِدُ بِهِ بَابَ الْأَعْدَادِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّ مَا لَا ثَانِيَ لَهُ لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْأَعْدَادِ، أَمَا تَرَى أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ: «ثالِثُ ثَلاثَةٍ». وَقَوْلُ الْقَائِلِ: «هُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ» يُرِيدُ بِهِ النَّوْعَ مِنَ الْجِنْسِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ، وَجَلَّ رَبُّنَا عَنْ ذَلِكَ وَتَعَالَى. وَأَمَّا الْوَجْهَانِ اللَّذَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ: فَقَوْلُ الْقَائِلِ: «هُوَ وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ شِبْهٌ»، كَذَلِكَ رَبُّنَا؛ وَقَوْلُ الْقَائِلِ: «إِنَّهُ ﷻ أَحَدِيُّ الْمَعْنَى» يَعْنِي بِهِ: أَنَّهُ لَا يَنْقَسِمُ فِي وُجُودٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا وَهْمٍ، كَذَلِكَ رَبُّنَا ﷻ»[2].

وسئل الصادق عليه السلام: «مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ؟ قَالَ: اتِّصَالُ التَّدْبِيرِ وَتَمَامُ الصُّنْعِ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا»[3]»[4].

أقول: وشرح ذلك: أنّ ارتباط الموجودات بعضها ببعض على النظم الحكميّ دليل على أنّ مُبدِعها ومُدبِّرها وممسك رباطها من أن ينفصمَ، واحد حقيقيّ؛ كما أنّ ائتلاف

---

١ ـ آل عمران: ١٨.

٢ ـ التوحيد: ٨٣ ـ ٨٤، باب ٣، ح ٣؛ الخصال: ٢، باب الواحد، ح ١؛ بحار الأنوار: ٣/٢٠٧، باب ٦، ح ١.

٣ ـ الأنبياء: ٢٢.

٤ ـ التوحيد: ٢٥٠، باب ٣٦، ح ٢؛ بحار الأنوار: ٣/٢٢٩، باب ٦، ح ١٩.

أعضاء الشخص الواحد الإنسانيّ منتظمة في رباط واحد منتفعة بعضها عن بعض مع اختلافها وامتياز بعضها عن بعض دليل على أنّ مدبّرها وممسكها عن الانحلال قوّة واحدة ومبدأ واحد. والحمد لله وحده.

القول في الصّفات

كلّ كمال حقيقيّ في العالم فلا بدّ وأن ينتهي إلى كامل بالذّات في ذلك الكمال، وكلّ كامل بالذات في كمال يجب أن يكون غنيّاً بالذات في ذاته، إذ لو افتقر في ذاته إلى الغير افتقر في كماله أيضاً؛ فلمّا ثبت أنّ الغنيّ بالذات واحد فجميع الكمالات ينتهي إليه، فله ـ سبحانه ـ من كلّ متقابلين أشرفهما كالعلم والقدرة والحياة وغير ذلك على وجه يليق بجلاله؛ وكلّ متقابلين كلاهما صفة كمال فكلاهما ثابتان له‍ على الوجه الأكمل، كالنعوت الجلاليّة والجماليّة المعبّر عنهما بقوله عزّ اسمه: «ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»[1]، وذلك مثل اللطف والقهر والرحمة والغضب والرضا والسخط وغير ذلك، ولا يكاد أن يخلوان عن اشتراك مّا، فإنّ تحت كلّ جمال جلالاً كالهيمان[2] الحاصل من الجمال الإلهيّ من انتهاء العقل منه وتحيّره فيه، وتحت كلّ جلال جمالاً كاللطف المستور في القهر الإلهيّ كما قال‍: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»[3].

وصفاته‍ عين ذاته وجوداً وعيناً وفعلاً وتأثيراً، بمعنى أنّ ذاته بذاته يترتّب عليه آثار جميع الكمالات وإن كانت غيره من حيث المعنى والمفهوم في العقل؛ وذلك لأنّها لو كانت غيره وجوداً لافتقر إليها ولم يكن غنيّاً بذاته ـ تعالى عن ذلك ـ.

---

١ ـ الرحمن: ٢٧ .

٢ ـ الهيمان بمعنى العطشان، وجمعه:هيم «فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ» (الواقعة: ٥٥)، ورجل هيمان: محبّ شديد الحبّ.

٣ ـ البقرة: ١٧٩.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ؛ فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ»[1].

وقال الصّادق عليه السلام: «هُوَ نُورٌ لَا ظُلْمَةَ فِيهِ، وَحَيَاةٌ لَا مَوْتَ فِيهِ، وَعِلْمٌ لَا جَهْلَ فِيهِ، وَحَقٌّ لَا بَاطِلَ فِيهِ»[2].

وقال بعض العارفين: «وجود كلّه وجوب كلّه علم كلّه قدرة كلّه حياة كلّه، لا أنّ شيئاً منه علم وشيئاً آخر قدرة ليلزم التّركيب في ذاته، ولا أنّ شيئاً منه علم وشيئاً آخر منه قدرة ليلزم التكثّر في صفاته الحقيقيّة، تعالى الله عن ذلك»[3].

---

١ ـ نهج البلاغة: ٣٩، الخطبة الأولى؛ بحار الأنوار: ٢٤٧/٤، أبواب أسمائه، باب ٤، ح ٥.

٢ ـ التوحيد: ١٤٦، باب ١١، ح ١٤ ؛ بحار الأنوار: ٧٠/٤، باب الصفات، باب ١، ح ١٦.

٣ ـ هو كلام أبونصر الفارابي، راجع: الحكمة المتعالية: ١٢١/٨، الموقف الثاني، كلام سهروردي؛ المبدأ والمعاد: ١٧٥، الفنّ الأوّل، المقالة الثالثة ، تذنيب.

الباب الثاني: في النبوّة

قال الله ﷻ: «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ»[1].

اعلم:

أنّ الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله والبدن مركب، ومن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتمّ سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتمّ أمر التبتّل والانقطاع إلى الله الّذي هو السّلوك، ولا يتمّ ذلك حتّى يبقى بدنه سالماً ونسله دائماً، وإنّما يتمّ كلاهما بأسباب الحفظ لوجودهما وأسباب الدفع لمفسداتهما ومهلكاتهما؛ أمّا أسباب الحفظ لوجودهما فالأكل والشّرب وذلك لبقاء البدن، والمناكحة وذلك لبقاء النسل. وقد خلق الله تعالى الغذاء سبباً للحياة والأناث محلّاً للحِراثة[2]، إلّا أنّه ليس يختصّ المأكول والمنكوح ببعض الآكلين والناكحين بحكم الفطرة، مع أنّهم محتاجون إلى تمدّن واجتماع وتعاون؛ إذ لا يمكن لكلّ منهم أن يعيش وحده يتولّى بتدبيراته المتكثّرة المختلفة من غير شريك يعاونه على ضروريّات حاجاته، بل لا بدّ مثلاً لأن ينتقل هذا لهذا ويطحن هذا لهذا ويخبز هذا لهذا.

وعلى هذا القياس فافترقت أعداد واختلفت أحزاب وانعقدت صُنّاع[3] وبلاد، فاضطرّوا في معاملاتهم ومناكحاتهم وجناياتهم إلى قانون مرجوع إليه بين كافّتهم

---

١ ـ الفاطر: ٢٤.

٢ ـ أشار إلى كريمة: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ»، البقرة: ٢٢٣.

٣ ـ جمع الصانع.

يحكمون به بالعدل، وإلّا لتهارشوا[١] وتقاتلوا، بل شغلهم ذلك عن السلوك للطريق، بل أفضى بهم إلى الهلاك وانقطع النسل واختلّ النظام لما جبلّ عليه كلّ أحد من أنّه يشتهي لما يحتاج إليه ويغضب على من يزاحمه؛ وذلك القانون هو الشّرع[٢].

ولا بدّ من شارع يعيّن لهم ذلك القانون والمنهج لينتظم به معيشتهم في الدّنيا، ويسنّ لهم طريقاً يصلون به إلى الله ﷻ؛ بأن يعرض عليهم ما يذكّرهم أمر الآخرة والرّحيل إلى ربّهم، «وينذرهم يوم ينادون فيه من مكان قريب»، «وتنشقّ الأرض سراعاً»[٣]، «وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[٤]، لئلاّ ينسوا ذكر ربّهم، ويذهلوا بدنياهم عن عقباهم الّتي هي غاية القصوى والمقصد الأقصى.

وبوجه آخر: لمّا كان الإنسان في أوّل أمره ومبدأ نشوه خالياً عن كماله الّذي خلق له قاصراً عن الغاية الّتي تذبّ إليها ـ كما قال الله تعالى: «وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً»[٥] ـ قابلاً إيّاه بفطرته الّتي فطر عليها، يمكن له الوصول إليه بما أوتي من أسبابه وهيّئ له من شرايطه.

كما قال ﷻ: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[٦].

١ ـ تقاتلوا ولتواثبوا. والتهرش بين الناس كالتحريش؛ راجع: النهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٦٠.

٢ ـ إلى هنا كلام الغزالي. راجع: جواهر القرآن: ٣١.

٣ ـ أشار إلى هاتين الآيتين: «وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ»، ق: ٤١؛ «يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً»، ق: ٤٤.

٤ ـ المائدة: ١٦.

٥ ـ النحل: ٧٨.

٦ ـ النحل: ٧٨.

وقال: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»[١].

لكنّه ممنوع بمقتضيات نشأته الّتي جبلّ عليها لو خلّي وشأنه، لتشاكله على ما يقضتيه مزاجه وطبيعته بحسب الغالب من قواه وموجب طينته وهواه، كما قال: «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ»[٢]؛ إذ كلّ مزاج يناسب قوّةً دون أخرى، ويسهّل له فعل بعضها ممّا يلائم حالها دون بعض، على ما عبّر في التنزيل عنه مرّةً بقوله: «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ»[٣]، وأخرى: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً»[٤]، «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً»[٥]، «إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً»[٦]؛ فمن الواجب أن يكون سياسة تُسوسّه وتربّيه لصلاحيّة الكمال وتُدبّره وتُجرّبه في طريق الخير والسّعادة، وإلّا لبقي في مرتبة البهائم، وحيل بينه وبين النّعيم الدّائم.

وأيضاً، فكما لا بدّ في العناية الإلهية لنظام العالم من المطر، ورحمة الله لم تقتصر عن إرسال السماء مدراراً لحاجة الخلق، فنظام العالم لا يستغني عمّن يعرفهم موجب صلاح الدّنيا والآخرة.

نعم، من لم يهمل إنبات الشعر على الحاجبَين للزّينة لا للضرورة، كيف أهمل وجود رحمة للعالمين، مع ما في ذلك من النفع العاجل السّلامة في العقبى والخير الآجل؛ أم

١ ـ آل عمران: ١٠٣.

٢ ـ الإسراء: ٨٤.

٣ ـ الأنبياء: ٣٧.

٤ ـ الإسراء: ١٠٠.

٥ ـ المعارج: ١٩.

٦ ـ الأحزاب: ٧٢.

من لم يترك الجوارح والحواسّ حتّى جعل لها رئيساً يصحّح لها الصّحيح ويتيقّن[1] به ما شكت فيه وهو الرّوح، كيف يترك الخلائق كلّهم في حيرتهم وضلالتهم وشكّهم لا يقيم لها ما يردّدون إليه شكّهم وحيرتهم.

«أَنَّهُ قَالَ الصادق عليه السلام لِلزِّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَهُ مِنْ أَيْنَ أَثْبَتَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ؟ قَالَ: إِنَّا لَمَّا أَثْبَتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقاً صَانِعاً مُتَعَالِياً عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيماً مُتَعَالِياً، لَمْ يَجُزْ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ وَلَا يُلَامِسُوهُ، فَيُبَاشِرَهُمْ وَيُبَاشِرُوهُ، وَيُحَاجَّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ؛ ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ[2] فِي خَلْقِهِ، يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ، وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِهِ فَنَاؤُهُمْ؛ فَثَبَتَ الْآمِرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ، وَالْمُعَبِّرُونَ عَنْهُ ـ جَلَّ وَعَزَّ ـ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام وَصَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، حُكَمَاءَ مُؤَدَّبِينَ بِالْحِكْمَةِ مَبْعُوثِينَ بِهَا، غَيْرَ مُشَارِكِينَ لِلنَّاسِ ـ عَلَى مُشَارَكَتِهِمْ لَهُمْ فِي الْخَلْقِ وَالتَّرْكِيبِ ـ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، مُؤَيَّدِينَ مِنْ عِنْدِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ بِالْحِكْمَةِ، ثُمَّ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَزَمَانٍ مِمَّا أَتَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ، لِكَيْلَا تَخْلُوَ أَرْضُ اللهِ مِنْ حُجَّةٍ يَكُونُ مَعَهُ عِلْمٌ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَقَالَتِهِ وَجَوَازِ عَدَالَتِهِ»[3].

ثمّ لا بدّ أن يكون السانس السّانّ إنساناً؛ لأنّ مباشرة الملك لتعليم الإنسان على

١ ـ كذلك في نسخة «م»، وفي «ع»: تتيقّن بها، وفي «ق»: يتقن.

٢ ـ «السفراء» الرسل، جمع سفير؛ الوافي: ٢٢/٢.

٣ ـ الكافي: ١٦٨/١، كتاب الحجّة، باب الاضطرار، ح١؛ التوحيد: ٢٤٩، باب٣٦، ح١؛ علل الشرائع: ١٢٠/١، باب٩٩، ح٣.

هذا الوجه مستحيل، كما نبّه له عليه قوله ﷻ : «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ»[١]، ودرجة باقي الحيوانات أنزل.

ولا بدّ من تخصّصه[٢] بآيات من عند الله سبحانه دالّة على أنّ شريعته من عند ربّهم العالم القادر الغافر المنتقم ـ كما أشير إليه في الحديث المذكور آنفاً ـ ليخضعوا له، ويلزم لمن وقف لها أن يقرّ بتقدّمه ورياسته؛ وهي الحكمة والمعجزة.

وأيضاً لو افتقر كلّ أحد من النّاس إلى معلّم بشريّ لتسلسل الأمر إلى ما لا يقف فلا يحصل علم، فلا بدّ إذن من شخص يستبدّ بفهم الإشارات «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ»[٣]، وهو النّبيّ.

---

١ ـ الأنعام: ٩.

٢ ـ في «م»: تخصيصه.

٣ ـ النور: ٣٥.

القول في علل الشرايع

ثمّ يجب على النّبيّ أن يسنّن للناس في أمورهم سنناً بإذن الله وأمره ووحيه وإنزاله الرّوحَ القدس عليه، ويكون الأصل الأوّل فيما يسنّه تعريفه إيّاهم أنّ لهم صانعاً واحداً قادراً، وأنّه عالم بالسرّ والعلانية، وأنّه من حقّه أن يُطاع بأمره؛ فإنّه يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق، وأنّه قد أعدّ لمن أطاعه النعيم ولمن عصاه الجحيم، حتّى يتلقّوا رسمه المنزل على لسانه من الله والملائكة بالسّمع والطاعة.

ولا ينبغي له أن يشغلهم بشيء من معرفة الله فوق معرفته، أنّه واحد حقّ لا شبيه له، لئلّا يعظم عليهم الشغل ويشوّش فيما بين أيديهم الدّين ويوقعهم فيما لا مخلص عنه من الشكوك والشبه، إلّا لمن كان المعان الموفّق الّذي يشذّ وجوده ويندر كونه، فإنّهم لا يمكنهم تصوّر ذلك على وجهه إلّا بكدّ[1]، فيقعوا في تنازع وآراء مختلفة مخالفة لصلاح الدينيّة؛ بل يجب أن يعرفهم جلالة الله وعظمته برموز وأمثلة من الأشياء الّتي هي عندهم جليلة وعظيمة، ويُلقي إليهم مع هذا أنّه لا نظير له ولا شريك ولا شبيه.

وكذلك يقرّر لهم أمر المعاد على وجه يتصوّرون كيفيّته وتسكن إليه نفوسهم، ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالاً ممّا يفهمونه ويتصوّرونه؛ وإن اشتمل مع ذلك على رموز وإشارات يستدعي المستدعين بالحيلة للنظر إلى البحث الحكمي فلا بأس؛ كذا قاله بعض العلماء.

١ ـ الكدّ: الشدّة، الصلابة، التعب.

ويجب أن يلزمهم الطّاعات والعبادات ليسوقهم بالتّعويذ عن مقام الحيوانيّة إلى مقام المَلَكيّة، إمّا أموراً وجوديّةً يخصّهم نفعها كالصّلوات والأذكار على هيأة الخشوع والخضوع لتُحرّكهم بالشوق إلى الله، أو يعمّ نفعها لهم ولغيرهم كالصدقات والقِرابين في هيكل العبادات؛ وإمّا أموراً عدميّةً تزكّيهم، إمّا تخصّهم كالصيام، أو تعمّهم وغيرهم كالكفّ عن الكذب وإيلام النوع والجنس والصّنف.

وأن يسنّ عليهم أسفاراً ينزعجون[1] فيها عن بيوتهم طالبين رضا ربّهم، ويتذكّرون يوماً من الأجداث إلى ربّهم ينسلون، فيزورون الهياكل الإلهيّة والمشاهد النبويّة ونحوها.

ويشرع لهم عبادات يجتمعون عليها كالجمعة والجماعات، فيكسبون مع المثوبة التّودّد والائتلاف والمصافات، ويكرّر عليهم العبادات والأذكار في كلّ يوم لئلّا ينسو ذكر ربّهم فيهملون.

ويجب أيضاً أن يقنّن للنّاس قوانين الاختصاصات في الأموال وعلاماتها من عقود المعاوضات والمداينات وقسمة المواريث والغنائم والصّدقات، ويعرّف كيفيّة التخصيص عند الاستبهام بالأقارير والأيمان والشّهادات، ويقنّن قوانين الاختصاص بالأناث وعلاماتها من أحكام النكاح والفرقة وغيرهما، وأن يفرض في المعاملات المؤدّية إلى الأخذ والإعطاء سنناً تمنع وقوع الغرر والحيف، وأن يحرّم المعاملات الّتي فيها غرر.

وأن يسنّ على الناس معاونة الناس والذبّ عنهم ووقاية أموالهم وأنفسهم من غير أن يغرم متبرّع فيما يلحق متبرّعه. وأن يحرّم البطالة والتعطّل والصناعات الّتي يقع فيها

---

١ ـ ينزعج: ينقلع.

انتقالات الأملاك والمنافع من غير مصالح يكون بإزائها ولو منفعة أو ذكر جميل كالقمار. وكذا الّتي تدعوا إلى أضداد المصالح والمنافع كالسرقة والقيادة. والحرف الّتي تغني الناس عن تعلّم الصناعات الداخلة في الشركة كالربا. والأفعال الّتي تؤدّي إلى ضدّ ما عليه بناء التمدّن كالزّنا واللواط المؤدّيان إلى الاستغناء عن التزويج ـ الّذي به يحصل التناسل الضروري لحفظ النوع ـ.

وأن يدعوا إلى التزويج ويحرّض عليه؛ لأنّ في بقاء الأنواع دليل وجود الله سبحانه وعبادته المطلوبة من الخلق. وأن يؤكّد الأمور في ثبوت هذه الوصلة حتّى لا يقع بأدنى سببٍ فُرقَةٌ فتؤدّي إلى تشتّت الشمل الجامع للأولاد ووالديهم. وفي ذلك أنواع من الضرر؛ وأن يكون إلى الفرقة سبيل مّا. لأنّ من الطباع ما لا يتوالف. فكلّما اجتهد إلى الجمع زاد الشرّ والنبوّ[١] وتنغّصت المعايش. وربّما كان الزوج غير كفو ولا حسن المذاهب في العشرة فتدعوا الرغبة في غيره. إذ الشهوة طبيعيّة فيؤدّي ذلك إلى وجوه من الفساد. وربّما كان المتزاوجان لا يتعاونان على النسل فإذا بدّلا بآخرين تعاونا.

ويجب أن يكون الفرقة مشدّداً فيها ولا يكون في يد المرأة. لأنّها واهية العقل مبادرة إلى متابعة الهوى والغضب؛ وأن يسنّن فيها التستّر والتخدّر. لأنّ من حقّها أن تصان لكثرة شهوتها وانخداعها وقلّة عقلها. وكون الاشتراك فيها ممّا يوقع أنفة[٢] وعاراً عظيماً وهي من المضارّ المشهورة. بخلاف الاشتراك في الرجل فإنّه لا يوقع عاراً بل حسداً. والحسد غير ملتفت إليه لأنّه طاعة للشيطان. ولذلك يجب أن يسنّ لها أن يكفي من

١ ـ في «ق»و«ع» البنو . في«م» اللّهو ؛ ولعلّ الصّحيح ما أثبتناه ؛ النّبوّ: التّباعد والتّجافي.

٢ ـ الأنفة: في الأصل الضرب على الأنف ليرجع ، ثمّ استعمل لتعبيد الأشياء. راجع: مجمع البحرين: ٢٨/٥.

جهة الرّجل، فيلزم الرجل نفقتها، لكنّ الرجل يجب أن يعوّض من ذلك عوضاً وهو أنّه يملّكها ولا تملّكه؛ فلا يكون لها أن تنكح غيره، وأمّا الرجل فلا يحجز عليه في هذا الباب وإن حرم عليه تجاوز عدد لا يفيء بإرضاء ما ورائه وعوله.

ويسنّ في الوُلدان يتولّاه كلّ واحد من الأبوين في التربية، أمّا الوالدة فبما تحضنه، وأمّا الوالد فبالنفقة، وكذلك الولد أيضاً يسنّ عليه خدمتهما وطاعتهما وإكبارهما وإجلالهما، فهما سببا وجوده ومع ذلك فقد احتملا مؤنته.

وأن يسنّ في الأخلاق والعادات سنناً تدعوا إلى العدالة ـ الّتي هي الوساطة لتزكية النفوس ـ ولمصالح دنيويّة[١]، فإنّ الرذائل الإفراطيّة تضرّ في المصالح الإنسانيّة، والتفريطيّة تضرّ في التمدّن.

وأن يسنّ مقاتلة الكفّار وأهل البغي بعد أن يدعوهم إلى الحقّ، دفعاً لما يعرض من الجاهدين للحقّ من تشويش أسباب الديانة والمعيشة اللّتين بهما الوصول إلى الله؛ وأن يباح أموالهم وفروجهم، لأنّها ليست عائدة بالمصلحة الّتي يطلب الأموال والفروج لها بل معيّنة على الفساد والشرّ، وإذ لا بدّ للناس من الخدم فيجب أن يكون أمثال هؤلاء يُجبرون على خدمة أهل الحقّ؛ وكذا كلّ من كان بعيداً عن تلقّن الفضيلة ممّن لم يكن له قريحة صحيحة مثل التّرك والزّنج[٢].

وإذا كانت لقوم سنّة حميدة لم يتعرّض لهم إلّا أن يكون الوقت يوجب التّصريح بأن لا سنّة غير السنّة النّازلة، فحينئذٍ يؤدّب هؤلاء أيضاً ويجاهد، ولكن مجاهدةً دون

١ ـ في«م»: المصالح الدنيويّة.
٢ ـ الترك: الجيل المعروف الّذي يقال له الديلم ، والجمع: أتراك ؛ الزنج: جيل من السودان وهم الزنوج.

مجاهدة أهل الضلال الصّرف، أو يلزموا غرامة على ما يؤثّرونه فيسالموا على فداء أو جزية؛ وبالجملة، يصحّح عليهم أنّهم مبطلون، وكيف لا يكونون مبطلين وقد امتنعوا من طاعة الشريعة الّتي أنزلها الله تعالى.

هذا ملخّص ما أفاده بعض أهل العلم والحكمة.

القول في الإمامة

ثمّ يجب على النبيّ أن ينصب وصيّاً وخليفةً يكون إماماً للناس بعده، يحفظ سنّته ويبقى إلى بعثة نبيّ آخر؛ لأنّ النبيّ ليس ممّا يتكرّر وجود مثله في كلّ وقت، ولا النّاس يحتاجون إلى شريعة متجدّدة في كلّ حين.

ويجب أن يكون ذلك الوصيّ أفضل أهل زمانه وأقربهم إلى الله ﷻ، وأن يجمع فيه خصال الخير المتفرّقة في غيره، مثل العلم بكتاب الله وسنّة رسوله والفقه في دين الله والجهاد في سبيل الله والرغبة فيما عند الله والزّهد فيما بيد خلق الله إلى غير ذلك من الخيرات؛ ليطيعه النّاس إطاعتهم النبيّ سواءً.

ويجب أن يكون معصوماً من الزيغ والزلل، محفوظاً عن الخطاء في القول والعمل، منزّهاً من أن يحكم بالهوى أو يميل إلى الدنيا؛ ليصحّ اعتمادهم عليه وإصغاؤهم له.

ويجب أن لا يكون استخلافه إلّا من جهة النبيّ بوحي من الله ﷻ إليه ونصّ منه، إذ لا طريق إلى معرفة هذه الخصال إلّا بتلك الجهة، ولئلّا يؤدّي إلى التشعّب والتشاغب[1] والاختلاف؛ وأن يفرض على النّاس جميعاً طاعته.

ويحكم في سنّته أنّ من خرج عليه وادّعى الإمامة والخلافة بفضل قوّة أو مال فعلى كافّتهم قتاله وقتله، فإن قدروا ولم يفعلوا فقد عصوا الله وكفروا به، ويحلّ دم من تعدّ عن ذلك وهو متمكّن منه بعد أن يصحّح على رأس الملأ ذلك منه.

---

١ ـ التشعّب: التفرقة؛ والتشاغب: التعاصي.

ويجب أن يسنّ أن لا قربة عند الله بعد الإيمان بالنّبيّ أعظم من إتلاف هذا المتقلّب، لتنضبط السّياسة الدّينيّة الّتي يتولاّها حارس السّالكين وكافل المحقّين نائباً عن رسول ربّ العالمين.

وممّا يدلّ على وجوب وجود خليفة من الله في أرضه نبيّ أو وصيّ؛ أنّ الغاية القصوى والفائدة العظمى من خلق المركّبات في سلسلة العود بل المقصود الأصلي من إيجاد الموجودات مطلقاً إنّما هو وجود الإنسان الكامل الّذي هو خليفة الله في أرضه.

كما أشير إليه في الحديث القدسي: «خلقتُ الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي»[١].

وفي حديث آخر: «لو لاك لما خلقتُ الأفلاك»[٢].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَا عَلِيُّ لَوْ لَا نَحْنُ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ وَلَا حَوَّاءَ، وَلَا الجَنَّةَ وَلَا النَّارَ، وَلَا السَّمَاءَ وَلَا الأَرْضَ»[٣].

فإذا كان كذلك فلابدّ أن يكون في كلّ زمان من وجود خليفة يقوم به الأمر ويدوم به النوع ويحفظ به البلاد ويهدي به العناد ويمسك به السّماوات والأرضون، وإلّا فيكون الكلّ هباءً وعبثاً إذ لا ترجع إلى غاية ولا تؤول إلى عاقبة ففنيت إذاً وخربت.

كما أشار إليه الإمام أبوالحسن الرضا عليه السلام بقوله: «لَوْ خَلَتِ الأَرْضُ طَرْفَةَ عَيْنٍ مِنْ

١ ـ مشارق أنوار اليقين: ٢٨٢؛ رسائل الكركي: ١٦٢/٣؛ فيض القدير: ٤٦٦/٥.

٢ ـ ألقاب الرسول وعترته: ٩؛ مناقب آل أبي طالب: ١٨٦/١؛ مشارق أنوار اليقين: ٤٣؛ جامع الأسرار ومنبع الأنوار: ٣٨١.

٣ ـ علل الشرايع: ٥/١، باب٧، ح١؛ بحار الأنوار: ٣٤٥/١٨، باب٣، ح٥٦ .

حُجَّةٍ لَسَاخَتْ بِأَهْلِهَا»[١].

وعن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام: «لَوْ بَقِيَتِ الأَرْضُ بِغَيْرِ إِمَامٍ لَسَاخَتْ»[٢].

وعن أبيه أبي جعفر الباقر عليه السلام: «لَوْ أَنَّ الإِمَامَ رُفِعَ مِنَ الأَرْضِ سَاعَةً، لَمَاجَتْ بِأَهْلِهَا كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ بِأَهْلِهِ»»[٣].

وعن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهُمَّ بَلَى! لَا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِرٌ مَشْهُورٌ وَإِمَّا خَائِفٌ مَغْمُورٌ»[٤].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «فِي كُلِّ خَلَفٍ مِنْ أُمَّتِي عَدْلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يَنْفُونَ عَنْ هَذَا الدِّينِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»[٥].

وفي حديث المشهور المتّفق عليه بين الخاصّة والعامّة: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَهُ فَقَدْ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٦].

---

١ ـ بصائر الدرجات: ٥٠٩، الجزء التاسع، باب ١٢، ح٨؛ عيون أخبار الرضا: ٢٤٧/٢، باب ٧٨، ح٤؛ بحار الأنوار: ٢٩/٢٣، باب ١، ح٤٣.

٢ ـ الكافي: ١٧٩/١، كتاب الحجّة، باب أنّ الأرض لا تخلو من حجّة، ح١٠؛ بحار الأنوار: ٢٨/٢٣، باب١، ح٤٠؛ «يعني انخسفت بأهلها وذهبت بهم»: الوافي: ٦٥/٢.

٣ ـ الكافي: ١٧٩/١، كتاب الحجّة، باب أنّ الأرض لا تخلو من حجّة، ح١٢؛ كمال الدّين: ٢٠٢، باب ٢١، ح٣؛ بحار الأنوار: ٣٤/٢٣، باب ١، ح٥٦.

٤ ـ دستور معالم الحكم: ٨٤؛ كنز العمّال: ٢٦٣/١٠، ح٢٩٣٩١؛ تفسير الصافي ٢٤/٢؛ متن الحديث في نهج البلاغة كذلك: «... إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً» ، راجع: نهج البلاغة: ٤٩٧، ح١٤٧.

٥ ـ الدرّ النّظيم ٢٥٦؛ مناقب آل أبي طالب: ٢١١/١؛ وكذا راجع: قرب الإسناد: ٧٧، ح٢٥٠؛ الكافي: ٣٢/١، كتاب فضل العلم، باب صفة العلم، ح٢ ؛ انتحله: ادّعاه لنفسه وهو لغيره.

٦ ـ الخبر متواتر بين الفريقين ، مناقب آل أبي طالب: ٢١٢/١؛ وكذا راجع: كمال الدين: ٤٠٩، باب ٣٨، ح٩؛ إقبال الأعمال: ٢٥٢/٢؛ بحار الأنوار: ٣٦٨/٨، باب ٢٧، ح٤١.

ثمّ اعلم: أنّ الغرض الأصلي من إرسال الرسل ووضع الشرايع إنّما هو استخدام الغيب للشهادة، وخدمة الشهوات للعقول، وإرجاع الجزء إلى الكلّ، وسياقة الدنيا إلى الآخرة، وتصيير المحسوس معقولاً، والحثّ عليه والزجر على عكس هذه الأمور؛ لكي ينجو الخلايق من عذاب الآخرة والوبال ودخامة[1] العاقبة وسوء الهال، ويفوزوا بالسعادة القصوى على قدر استعداداتهم؛ وإلّا فيكفي الإنسان في أن يعيش نوع من السياسة يحفظ اجتماعهم الضروري وإن كان ذلك منوطاً بتغلّب أو ما يجري مجراه، كما ترى من تعيش سكّان أطراف العمارة بالسياسات الضرورية؛ ولهذا إذا تدبّرت في الأحكام الشرعيّة لم تجد شيئاً منها خالياً عن تقوية الجنبة العالية.

والفرق بين السياسة والشريعة: أنّ السّياسة تحرّك الأشخاص البشريّة لتجمعهم على نظام مصلح لجماعتهم، وإنّما تصدر عن[2] النفوس الجزئيّة؛ والشريعة تحرّك النفوس وقواها إلى ما وكلت به في عالم التركيب من مواصلة نظام الكلّ وتذكّرها معادها إلى العالم الأعلى وتزجرها عن الانحطاط إلى الشهوة والغضب وما يتركّب عنهما ويتفرّع عليهما، وإنّما تصدر عن العقول الكلّيّة الكاملة؛ فأفعال السّياسة جزئيّة ناقصة مستبقاة[3] بالشريعة مستكملة بها، وأفعال الشريعة كلّيّة تامّة غير محوجَة إلى السياسة، وأيضاً فإنّ أمر السياسة مفارق عن ذات المأمور، وأمر الشريعة لازم لها؛ مثاله: أنّ السياسة تأمر بالتجمّل وهو لأجل الناظرين، والشريعة تأمر بالصلاة

١ ـ الوخامة: القذارة، السوء، غير الموافق.

٢ ـ تصدر عن: تنشأ وتنتج.

٣ ـ في «م» مستفادة؛ مستبقاة اسم مفعول «استبق» بمعنى «أثبت».

والصوم ونحوهما ممّا يعود نفعه إلى نفس المكلّف.

وبالجملة، السياسة للشريعة بمنزلة الجسد للروح والعبد للمولى، تُطيعُها مرّةً وتُعصيها أخرى؛ فإذا أطاعتها انقاد ظاهرُ العالم الباطنةَ، وقامت المحسوسات في ظلّ المعقولات، وتحرّكت الأجزاء نحو الكلّ، وكانت الرغبة في الباقيات الصالحات والزهادة في الفانيات البائدات، ويكون حال الإنسان عند ذلك الراحةَ من المؤذيات والفضيلةَ المؤدّيةَ به إلى الخيرات المكتسبة بالعادات المحمودة، وكان كلّ يوم يمضى عليه أفضل من أمسه؛ وإذا عَصت السياسة للشريعة تأمّرت الحواسّ على العقول، وزال الخشوع للأسباب البعيدة العالية، ووقع الإخلاص للعلل القريبة؛ ورأى الملوك أنّ بهم وبأفعالهم نظام ما ملكوه، ولم يعلموا أنّهم إذا أهملوا إقامة الشرايع وبذلوا جحدهم للمحسوس، ومنعوا نصيب الجزء الأشرف، يتحرّك عليهم قيّم العالم ليردّ ما أفسدوا منه إلى نظامه، ويعيد ما حرّفوا وبدّلوا إلى مقامه.

الباب الثالث: في المعاد

قال الله ﷻ: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»[1]، وقال: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ»[2].

اعلم: «أنّ الله سبحانه خلق الإنسان وسوّاه وعدّله شيئاً فشيئاً، وأتمّ خلقته وأكمله تدريجاً وأطواراً، وذلك بعد ما أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فخلقه أوّلاً من تراب ومن طين لازب ومن صلصال من حمإ مسنون، ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين من نطفة، ثمّ من علقة، ثمّ من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة، ثمّ جعله عظاماً،ثمّ كسا العظام لحماً، ثمّ أنشأه خلقاً آخر»[3]؛ وهذا الخلق الآخر من النشأة الأخرى الباقية غير هذه النشأة الدنياويّة الفانية، وهو من روح الله المنفوخ في هذا القالب بعد استعداده له؛ وهو الغرض الأصلي من هذه الخلقة والتركيب، وأمّا المراتب السابقة فإنّما خلقت لتكون محلّاً له وعُشّاً وغلافاً حافظاً، وهو الإنسان بالحقيقة، وإنّما البدن آلة لتحصيل كمالاته خارج عن ذاته؛ فإذا حصل له الكمالات الّتي كان في استعداده أن يتحصّل بها وصار كاملاً، استغنى عن البدن لا محالةَ وانزجر عنه لتوجّهه دائماً نحو كمال أخرويّ على التّدريج ورجوعه الطّبيعي إلى عالم آخر وانتقاله قليلاً

---

١ ـ الأعراف: ٢٩.

٢ ـ الأنبياء: ١٠٤.

٣ ـ أشار إلى: الحجّ: ٥ .

قليلاً إلى نشأة ثانية[1]، حتّى إذا بلغ غايته من التجوهر ومبلغه من الاستقلال في الذات ينقطع تعلّقه عن البدن بالكلّيّة ويرجع إلى عالم أعلى ومحلّ أرفع.

ولهذا يُرى الإنسان كلّما كمل عقله وازداد في عمره وحصل له تجاربه الّتي كانت في قوّته ازداد في بدنه وهناً وفي قواه كلالاً وضعفاً، لاستغنائه عنه شيئاً فشيئاً؛ فكلّما ازداد الرّوحُ حياةً بتحصيل الكمال ازداد البدنُ موتاً إلى أن يحيى هذا كملاً ويموت هذا كملاً[2]، سواء كانت كمالاته مُسعِدةً له أو مُشقِيةً.

فإنّه كما يكون الحركة الذاتيّة في السعادة ويكون التّكامل فيها، كذلك تكون في الشقاوة والازدياد فيها، على حسب ما غُرِزَ في[3] جبلّة الرّوح؛ فللإنسان حركة طبيعيّة ذاتيّة من لدن نشوه ووجوده ومبدئه إلى آخر بعثه ولقاء بارئه ومعاده، وإليها الإشارة بقوله ﷻ: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ»[4].

والموت والبعث منزلان من منازل هذا الطريق لا بدّ من المرور عليها لا محالة ولا مفرّ منهما، فهما ضروريّان للإنسان، «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»[5] «قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ»[6] «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

---

١ ـ في «ق» و«ع»: ثابتة.

٢ ـ يحيى الرّوح تامّاً كاملاً ويموت البدن تامّاً كاملاً.

٣ ـ غُرِز فيه: أدخِل فيه.

٤ ـ الانشقاق: ٦.

٥ ـ النّساء: ٧٨.

٦ ـ الجمعة: ٨.

ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ»[١] «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ»[٢].

ولمّا كان الموت والبعث واقعان[٣] في طريق هذه الحركة وقد رأى الناس في سلوكهم هذا كثيراً من المراتب السابقة عليها بقطعهم إيّاها ثمّ ينكرون ما بعد ذلك؛ قال الله ـ معاتباً لهم ـ: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ»[٤].

وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ» إلى قوله: «وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ»[٥].

وقال الله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ» إلى قوله: «ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ»[٦].

وقد ظهر ممّا ذكر: أنّ الموت ليس أمراً يُعدمنا بل يفرّق بيننا وبين ما هو غيرنا وغير صفاتنا اللّازمة.

ولهذا ورد في الحديث النبويّ صلى الله عليه وآله وسلم: «خلقتم للبقاء لا للفناء»[٧].

١ ـ العنكبوت: ٥٧.

٢ ـ المؤمنون: ١٦.

٣ ـ كذا في النسخ.

٤ ـ الواقعة: ٦٢.

٥ ـ الحجّ: ٥ـ٧.

٦ ـ المؤمنون: ١٢ـ١٦.

٧ ـ «ما خلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء وإنّما تنقلون من دار إلى دار»، راجع: الاعتقادات(للصدوق)، ٤٧، باب ١٤؛ بحار الأنوار: ٦/٢٤٩، أبواب الموت، باب٨، ح٨٧؛ الأمالي(للطوسي)، ٢١٦، ح٣٧٩.

وفي لفظ آخر: «خلقتم للأبد وإنّما تنقلون من دار إلى دار»[١].

وفي حديث آخر: «الأرض لا تأكل محلّ الإيمان»[٢].

وفي القرآن المجيد: «وَلا تَحْسَبَنَّ الّذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالّذين لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»[٣].

«ونادى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الأشقياء المقتولين «يوم بدر»: يا فلان يا فلان! قد وجدتُ ماوعدني ربّي حقّاً، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً ؟! ثمّ قال: والّذي نفسي بيده إنّهم لأسمع لهذا الكلام منكم، إلّا أنّهم لا يقدرون على الجواب»[٤].

---

١ ـ حلية الأولياء: ٢٨٧/٥ـ٢٨٨؛ وكذا راجع: مجموعة ورام: ١٤٤/١.

٢ ـ وردت في المصادر الحديثيّة بلفظة: «التّراب لا يأكل...» و«النّار لا يأكل...»، راجع: فيض القدير: ٥١/٦؛ الحكمة المتعالية: ٣٣١/٥ و ٣٢٠، باب ١١، فصل ٢٦ و ٢٤؛ وكذا راجع: بحارالأنوار: ٨٩/٥٨.

٣ ـ آل عمران: ١٦٩و ١٧٠.

٤ ـ وردت في المصادر الحديثيّة بنصوص مختلفة غير ما في المتن. راجع: مناقب آل أبي طالب: ٥٥/١؛ بحار الأنوار: ٣٤٦/١٩، باب ١٠، غزوة بدر الكبرى؛ كنز العمّال: ٣٧٦/١٠ـ ٣٧٧، ح ٢٩٨٧٤ـ ٢٩٨٧٧.

القول في أصناف اللّذّات وأربابها في الآخرة

قال الله تعالى: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» إلى قوله «وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ»[1].

اعلم: أنّ اللذّة إمّا عقليّة أو خياليّة أو حسّيّة، وقد ثبت أنّ اللذّة الخياليّة في الأخرة ترجع إلى الحسّيّة، وأنّ الخيال يصير هناك عين الحسّ ويتّحد به؛ فاللذّة في الآخرة تنحصر في قسمين.

أمّا العقليّة ـ كالالتذاذ بالعلوم والمعارف ـ فإنّها تكون للسابقين المقرّبين «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ»[2]، على حسب مراتبهم و«يَرْفَعِ الله الّذين آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذين أوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ»[3]، وهي أحلى اللذّات وأشهاها وألذّها، «وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً»[4]؛ فإنّ المعرفة في هذه الدنيا بذر المشاهدة في الآخرة، واللذّة الكاملة متوقّفة على المشاهدة، لأنّ الوجود لذيذ وكماله ألذّ؛ فالمعارف الّتي هي مقتضى طباع القوّة العاقلة من العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله إذا صارت مشاهدةً للنّفس كانت لها لذّة لا يدرك الوصف كنهها.

---

١ ـ الواقعة: ٧ـ٤١.

٢ ـ الواقعة: ١٢ـ١٤.

٣ ـ المجادلة: ١١.

٤ ـ الإسراء: ٢١.

ولهذا ورد في الحديث: «لا عيشَ إلّا عيش الآخرة»[١].

والوجودات متفاوتة في العالم العقلي، فالسّعادات متفاضلة بحسبها.

وإليه أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَاتٌ وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يَهْرَمُ خَالِدُهَا، وَلَا يَيْأَسُ[٢] سَاكِنُهَا»[٣].

وتفاضلها إمّا بالنوع أو بالكمّ أو بالكيف، فإنّ كلّ نوع من الأنواع الموجودة في هذا العالم يوجد هناك على وجه عقليّ وجوداً قويّاً أو ضعيفاً، كما يوجد ههنا صناعات مختلفة في نفس واحد منّا متفاضلة في النوع أو القوّة أو الضعف أو الكثرة والقلّة، «وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا»[٤].

ولمّا جاز اجتماع النّفوس هناك ـ ولو بلغت إلى لا نهاية لعدم تضايق بعضها عن بعض ـ ، فكلّما كثرت الأرواح المفارقة عن الأبدان المتعارفة المؤتلفة، واتّصل بعضها ببعض اتّصال معقول بمعقول، كان التذاذ كلّ واحد واحد منها بالآخر أشدّ؛ وكلّما لحق بهم من بعدهم زاد التذاذ من لحق بمصادفة الماضين، وزادت لذّات الماضين بمصادفة الباقين.

كما قال تعالى: «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»[٥].

---

١ ـ تفسير القمّي: ١٧٧/٢؛ الخرائج والجرائح: ١٠٤٨/٣؛ بحار الأنوار: ٢١٦/٢٠، باب١٧، ح٣.

٢ ـ كذا في بحار الأنوار، وفي نهج البلاغة: «يبأس».

٣ ـ نهج البلاغة: ١١٦، الخطبة ٨٥؛ بحار الأنوار: ١٦٢/٨، باب٢٣، ح١٠٣.

٤ ـ الأنعام: ١٣٢.

٥ ـ آل عمران: ١٧٠.

لأنّ كلّ واحد منهم هويّة وجوديّة نوريّة، فيعقل ذاته ويعقل مثل ذاته مراتٍ كثيرةً. ولأنّ المتلاحقين إلى غيرنهاية يكون تزايد قوّة كلّ واحد واحد ولذّاته في غابر[١] الزمان إلى غير نهاية نوعاً وكمّاً وكيفاً كما ذكرناه.

وأمّا اللذّة الحسّيّة ـ كالالتذاذ بالطعام والشراب والنكاح والأصوات الطيّبة والنغمات الرّخيمة ـ فهي لذّة المتوسّطين الصّالحين من أصحاب اليمين، كما قال الله ﷻ: «فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ» إلى قوله: «لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ»[٢].

وقد يكون أنواعاً منها للسّابقين المقرّبين، كما قال الله تعالى: «عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ» إلى قوله: «كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[٣].

وهذا يدلّ على أنّ ذلك جزاء أعمالهم دون علومهم واعتقاداتهم. ويشبه أن لا يكون لهم كثير التذاذ بها، بل لهم ولا التفات، كما يشعر به قوله ﷻ: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ»؛ لأنّ قرّة عيونهم إنّما هي في الجنّة العالية، وإنّما يحصل ذلك كلّه بإبداع النّفس تلك الصّوَر الملذّة في عالَمها وصُقعها[٤] الخاصّ بها، فإنّ لها اقتدار على ذلك؛ لكنّها ما دامت في هذه النشأة لا يترتّب عليها آثارها لضعفها واشتغالها بالمحسوسات وانهماكها فيها إلّا لأصحاب الكرامات خاصّةً، وأمّا في النشأة الآخرة فيكون ذلك لعامّة النّاس؛ إلّا أنّ السعداء لصفاء طَوِيَّتهم[١] وعدالة أخلاقهم يكون قرناؤهم في الصور الحسان

١ ـ الغابر: الماضي، الباقي.

٢ ـ الواقعة: ٢٨ـ٣٨.

٣ ـ الواقعة: ١٥ـ٢٤.

٤ ـ الصقع: الناحية، جمعه: أصقاع.

أنّ السعداء لصفاء طَوِيَّتهم[1] وعدالة أخلاقهم يكون قرناؤهم في الصور الحسان واللؤلؤ والمرجان، والأشقياء لخبث عقائدهم ورداءة أخلاقهم واعوجاج عاداتهم يكون جليسهم الحميم والزقّوم والعقارب والحيّات، إذ كما أنّ الأعمال مستتبعة للملكات في الدنيا بوجه فالملكات مستتبعة للأعمال في الآخرة بوجه.

وهذا معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وآله : «إنّ الجنّة قاع صفصف فأكثروا من غَراس الجنّة»[2]، الحديث.

وما يحصل هناك من الصور هو أشدّ إيلاماً وإلذاذاً من هذه المحسوسات المؤذية والملذّة بكثير، لصفاء المحلّ وقوّة الفاعل وعدم المشاغل وذكاء المدرك وانحصار القوى كلّها في قوّة واحدة هي المتخيّلة وصيرورتها عيناً باصرةً للنفس وقدرةً فعالّةً وانقلاب العلم مشاهدةً، فلا يخطر بالبال شيء في الجنّة تميل إليه النفس إلّا ويوجد في الحال بإذن الله، أي يوجد بحيث يراه رؤية عيان في الخارج يُحسّه حسّاً قويّاً لا أقوى منه.

وإليه الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله : «إنّ في الجنّة سوقاً يباع فيه الصّور»[3]، والسوق

---

١ ـ الطويّة: النيّة، الضمير.

٢ ـ وردت في المصادر الحديثيّة بهذا النصّ: «إنّ في الجنّة قيعاناً فأكثروا غرسها . قالوا: يارسول الله! وما غرسها؟ قال: سبحان الله والحمدلله ولا إله إلّا الله والله أكبر». راجع: كنز العمال: ٤٦٨/١ ، ح٢٠٣٨ ؛ مجمع الزوائد: ٨٩/١٠؛ المعجم الكبير: ٢٤٠/٦ ؛ بحار الأنوار: ٤٠٩/١٨، باب٣، ح ١٢٠؛ وكذا راجع: تفسير كنز الدقائق: ١٩٢/١؛ قاع صفصف: أرض سهلة مطمئنّة لإنبات فيه، غِراس: جمع الغرس .

٣ ـ كنز العمال: ٩٦/١٦ ،ح٤٤٠٥٢ ؛ بحار الأنوار: ٨/ ١٤٨، باب٢٣، ح٧٦؛ مسند أحمد: ١٥٦/١؛ متن الحديث كذلك: «إنّ في الجنّة سوقاً ما فيها شرى ولا بيع إلّا الصور من الرجال والنساء».

عبارة عن اللطف الإلهيّ الّذي هو منبع القدرة على اختراع الصور بحسب المشيئة ونيلها بالحسّ.

وهذه القدرة أوسع وأكمل من القدرة على الإيجاد في المادّة الجسمانيّة؛ لأنّ الموجود في المادّة لا يوجد في مكانين، وإذا صار مشغولاً باستماع واحد ومشاهدته ومماسّته صار مستغرقاً محجوباً عن غيره، وأمّا هذا فيتّسع اتّساعاً لا ضيق فيه ولا منع، حتّى لو اشتهى مشاهدة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مثلاً ألف شخص من ألف مكان في حالة واحدة لشاهدوه كما خطر ببالهم في الأماكن المختلفة، وأمّا الإبصار الحاصل من شخص النبيّ المادّيّ فلا يكون إلّا في مكان واحد، وأمر الآخرة أوسع وأوفى بالشهوات وأوفق لها.

وقد ثبت في محلّه: أنّ كلّ ما يصدر من الفاعل لا بواسطة المادّة الجسمانيّة فحصوله في نفسه عين حصوله لفاعله، وليس من شرط الحصول الحلول والاتّصاف، فإنّ صور الموجودات حاصلة للبارئ قائمة من غير حلول، وأنّ حصول الشّيء للفاعل أوكد من حصوله للقابل، فلكلّ واحد من أهل السّعادة في الآخرة عالَم فيه ما يُريد، ومن يرغب في صحبته ينشأ في لحظةِ عينٍ أو فلتةِ خاطرٍ؛ فالعوالم هناك بلا نهاية، كلّ منها كعرض السماوات والأرض، بلا مزاحمة شريك وسهيم، فكلّ عالِمٍ عالَم، والله سبحانه ربّ العالَمين، ويمكن أن يخلق الله سبحانه إدراكات أُخر لأهل الجنّة يدركون بها ما أُخفي لهم من قرّة أعين، والله قادر على كلّ شيء «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»[1].

١ ـ الحديد: ٣.

القول في أصناف الآلام وأربابها في الآخرة

قال الله تعالى: «وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ» [1]، (الآيات).

اعلم: أنّ الآلام أيضاً تنقسم بالأقسام الثلاثة وترجع في الأخرة إلى القسمين كاللذّات بعينها، والعقل وإن لم يتألّم حيث لا حظّ له من الشقاء وليس من دار الشّقاء [2]، إلّا أنّ من اشتاق إليه وحرم الوصول يسمّى ألمه ألماً عقليّاً. وإن لم يبلغ مرتبة العقل مُشاكَلَة [3] للذّة العقليّة ومقابلة لها؛ إذ الألم يرجع في الحقيقة إلى العدم، والعدم إنّما يعرف ويمتاز بالوجود.

فالعقلي من الألم هو أن يحصل لمن من شأنه ذلك الكمال مدّةً ويدرك صورة ضدّه من حيث هو ضدّه، وإنّما يكون للجاهدين للحقّ والمنكرين للعلوم والكاسبين لأنفسهم شوقاً إلى الكمالات العقليّة في الدّنيا، ثمّ التاركين الجهد في كسبها فقدت منهم القوّة الهيولانيّة وحصلت لهم فعليّة الشيطنة والاعوجاج، ورسخت في أوهامهم العقائد الباطلة؛ دون الناقصين بحسب الغريزة عن إدراك المراتب العالية، فإنّ شقاوة هؤلاء غير مؤلمة لعدم معرفتهم بالكمال ولا شوقهم إليه، فهي فيهم بمنزلة الموت أو الزمَانة [4].

---

١ ـ الواقعة: ٤١و٤٢.

٢ ـ كذا في النّسخ .

٣ ـ مشاكلة: شبه.

٤ ـ الزمانة: العاهة، عدم بعض الأعضاء، تعطيل القوى.

في الأعضاء من غير شعور بمؤلم؛ وكلاهما مشتركان في عدم الانجبار في الآخرة إلّا «أنّ البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة تبراء»[١]؛ فعذاب الناقصين بالذات عظيم من دون ألم.

وإليهم الإشارة بقوله سبحانه: «إنَّ الّذين كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» إلى قوله: «ومِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِالله وبِالْيَوْمِ الآخِرِ وما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخادِعُونَ الله والّذين آمَنُوا وما يَخْدَعُونَ إلّا أَنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ * في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ الله مَرَضاً ولَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»[٢].

وهذا الألم العقليّ الكائن عن المضادّات للحقّ هو بإزاء اللذّة والراحة الكائنة عن مقابلاتها، وكما أنّ تلك أجلّ من كلّ إحساس بأمر ملائم فكذلك هذه أشدّ من كلّ إحساس بمنافٍ حسّيّ، من تفريق اتّصال بالنّار أو تجميد بالزمهرير أو قطع بالمناشير أو سَقْطَة من شاهق[٣] أو نحو ذلك.

وأمّا الألم الحسّيّ فهو لمن غلب عليه الهيئات البدنيّة من المعاصي الحسّيّة كالفسوق والمظالم أو الأخلاق المذمومة كالحرص والحسد إلى غير ذلك. فإنّها بعينها تصير حيّات وعقارب محسوسة كما دريتَ في اللذّات الحسّيّة. فإنّ هذا الهيئات الانقهاريّة قبيحة مؤلمة لجوهر النّفس مضادّة لحقيقتها، لأنّ حقيقتها يستدعى أن يكون لها هيئة

---

١ ـ كذالك في النّسخ ، وفي المصادر: «بتراء»؛ ، البتراء: مؤنّث الأبتر، المقطوع. التبراء: أصله «تبر» بمعنى هلك. راجع: الملل والنحل: ١٩٨/٢؛ المواقف: ١٦٣/١؛ تفسير الرازي: ١٠١/٢٦؛ شرح المقاصد: ٤٥/١.

٢ ـ البقرة: ٦ـ١٠.

٣ ـ تفريق: توزيع. سَقْطَة: وقعة شديدة. الشّاهق: المرتفع.

استعلائيّة قهريّة على البدن وقواه الشهويّة والغضبيّة، فإذا انقهرت عنها وانقادت وخدمت إيّاها في تحصيل مآربها الدّنيّة كان ذلك موجب شقاوتها وتألّمها وحسرتها، لكن كان إقبالها على البدن وشواغله ينسيها عن أمر عاقبتها، وسكر الطّبيعة يشغلها عن الإحساس بفضيحتها؛ فإذا زال العائق وارتفع الحجاب وكشف الغطاء بموت البدن تصوّرت تلك الهيئات بالصور القبيحة المؤلمة الّتي تناسبها في تلك النشأة؛ كما قال تعالى: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]. «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ»[2].

ثمّ لمّا كانت هذه الهيئات غريبة عن جوهر النفس وكذا ما يلزمها، فلا يبعد أن تزول في مدّة من الدهر متفاوتة حسب تفاوت العوائق في رسوخها وضعفها وكثرتها وقلّتها إن شاء الله، فيَخرُجُ من النار من في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان ولو بعد حين، «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ»[3]. «إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»[4].

هذا آخر الكلام في «أصول العقائد الدّينيّة»، والحمد لله وحده والصّلاة على محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وأهل بيته عليهم السّلام ؛ تمّت.

---

١ ـ آل عمران: ١٨٠.

٢ ـ التوبة: ٣٥

٣ ـ الزلزلة: ٧و٨ .

٤ ـ النّساء: ٤٨.